

# قضية الكتاب العربي

بقلم فؤاد السائب

يتصل بصناعة حديثة شريفة تعز منازل الادباء والمفكرين . وليس من دار - كما اعلم - الا وكان هوى الكتاب فيها وراء صناعة الكتاب ، ونفخ الطيب قبل نشر الطيب ، فسبحان من خلق النحلة ، جارسة زهر ثم صانعة شهد ، وسبحان من نفخ حبة الادب سنبله في حقولكم ، ومن رمى السنابل غلالا في بيادركم .

... حمامة بريّة هبطت على بيدركم ، اذ لوحتم لها بمنديل ، فافرخ روعها ، وطاب مقامها . فشكرا ليد التي حيت ، وللمنديل الذي لوح بوعد المحبة . وليطب البيدر لاهله ، وليبارك الله غلال الزارعين الحاصدين . ايها السيدات والسادة :

بعد التحية اقول : لكل بطولة مأساة . ولكل قضية جليظة ، وجه منور ، واخر في الظلام ، وصناعة الكتاب في المحيط العربي لمن خبرها وعانها ، صناعة شقية لا يتصدى لها الا كل من القى به شوقه الى معاناة الشوق ، ووضع طموحه في المسالك الخشنة التي يصعد فيها طموح المغامرين .

قضية الكتاب العربي في وجهها المنور ، وفي جمالها الشعري ووصفها البطولي، بيدر وغلال ، ولذة سعي ورزق حلال ، ولكنها في وجهها الغارق في الظلال مأساة ( سيزيفية ) رهيبه لا يبررها سوى ادعان البطولة لمصيرها في لعبة الصخرة الازلية .

قضية الكتاب العربي في مدى الرؤية الراضية ، والواجهة الفاخرة ، صورة جميلة كصورة الحرف الكحيل، والورق الاسيل والغلاف المضمخ بطوب الجنة ، يعرض في الواجهات ، كما تعرض ازياء الفانيات ، بينما القراء الملهوفون دونها في اذنان مصفوفة ، ينتظرون دورهم لينالوا نسخة ، او يلتمسوا بركة ، او يسرقوا من سارق النار فكرة .

اما قضية الكتاب العربي بوجهها المغيّب في ظلام العصر ، ومأساة الجيل ، فليست سوى صورة القنديل الشاحب ، المعلق في سقف كوخ معتم ، زواياه محشورة برؤوس بشرية رسمت بفحم الجهل والغباء ، ولا شأن لها سوى ان تلعن النور وتبصق على القناديل .

قضية الكتاب العربي في هذه الرباع المظلمة من المحيط العربي ، قمر دائم الخسوف قلامه منه للفضاء الحر ، وكل بقيته الباقية في ظلام بطن الحوت . حول القلامه يتحلق جمهور ضئيل، كأنه يصطلي في ليلة مقرورة

اصدقائي في اتحاد الناشرين (١٠) يشرفني حقاً ان اكون ضيف مائدتكم ، في هذه الليلة من ايام الكتاب الذي تبسطون لسه اكفكم وسواعدكم ، وتمنحونه من نفوسكم عظيم الولاء ، وجميّل الوفاء . ويسعدني في الوقت ذاته ، ان اجد بجانب هذه المائدة السخية الطيبة منبرا للكلمة ، ومجالاً لتحية ، ومتسعاً لحديث سريع عن سيد هذه المائدة ، وجامع شملها وموقد شموعها : الكتاب .

وان يكن من تقاليد الخطب ، في ختام المآدب ، ان تكون خطبا مقصوفة محفوفة ، كثيرة الذوق بقصرها ولطيف مجاملاتها ، فارجو الا تكون كلمتي قليلة الذوق من جهة الطول . وان كنت من جهة المجاملة ، لم اتوخ لها ابدأ ان تكون مشرفة كتبادل الانخاب وقرع الكؤوس ، وتدوق الحلوات .

ايها الاخوات والاخوة :

بالامس حبيت مجلس المتن الشمالي للثقافة في مهرجان الريحاني،واليوم احيي اتحاد الناشرين في مهرجان الكتاب .

ذاك مهرجان لاحياء التاريخ ، وهذا مهرجان لتنوير المستقبل . ذاك لقاء لتكريم نضال ، وهذا لقاء لتكريم الياذات النضال . وما النضال بلا الياذته سوى دماء مهدورة ، وجلجلات محشورة ، وحركة قطعان بشرية ، تساق في عدمية الدهور، ويستوي فيها الابطال والمجرمون . بالامس في بيروت ، واليوم في بيروت ايضا . فكم لكم من يد ، يا اصحاب القناديل ، في هذه المدينة المنورة، وكم لكم من فضل ، على ماضي الحرف العربي ، وعلى مستقبل الكلمة العربية .

من حقكم على الكتاب،وتاريخ اشراق الكتاب في لبنان وفي ديار العرب، ان نذكر لكم، ايها السادة الناشرين، في يوم احتفالكم بالكتاب ، ودعوتكم اليه ، اجمل ما تذكرون به ، واطيب ما تطيب به سيرتكم : وهو انكم ادباء اهل ادب ، علماء احفاد علم ، مثقفون اصحاب رسالة في نشر الثقافات . بعضكم نشأ الحرف بين انمليه صيبا ، وبعضكم نشأ الحرف بين شفتيه فتيا ، فمنكم من رفعته عصاميته من وراء المحابر ، الى حيث تدور الكلمة في مدار الشمس، ومنكم من هبط من دوحه عريقة في الادب والفكر الى حيث

(١٠) نص الكلمة التي القيت في احتفال اتحاد الناشرين في الشهر الماضي بمناسبة اسبوع الكتاب .

حزينة . وفي بطن الحوت الرهيب ، كل الصيد وكل القضية ، وكل ذلك السواد الاعظم من الجماهير العربية، حيث الامية سلطان ودولة ، وقضاء مبرم .

في الجانب المنور من الحياة الجميلة ، يوقظ الناس باجراس الصباح ، وماذن الفجر ، وفي الشطر المغيب في ظلام الدهور ، لا يزال الاحياء يهربون الحوت آكل القمر ، بقرع الطبول ، ونحاس المطابخ .

ان الجانب المنور من حياتنا الفكرية شريط دقيق على هامش الحياة يسلكه السالكون وكأنهم على صراط .

اما الكتلة المظلمة من حياتنا ، فتكاد تكون معظم حياتنا .

وهل سر بعد ، ان الكتاب العربي يعيش في محيط تبتلع الامية فيه سبعين حتى الثمانين من اهله وبشريته، ويتحرك الكتاب العربي والناشر العربي في جمهور الخمسة بالمئة من العشرين غير الاميين ، في ابعاد تقدير المتفائلين . فاذا باع الكاتب من كتابه ، عندما ينفخ القدر الرحيم في حظوظه اربعة الاف نسخة ، خلال اربعة اعوام ، لا ادري اية نسبة يكون قد حقق . ولا ادري اي رزق بلغ ، واية رسالة ابلغ، وهو يذري هذه الحفنة على امة الثمانين مأيونا .

فليست مأساة الكتاب ان قد قامت دونه الحدود ، في مدى اللسان العربي ، وتألبت عليه فروض ادارة وسياسة ، ومال ، فجعلته في بلاد امته مسافرا في محجر الغرباء ، وبين بني جنسه ، متشردا في معزل المشبوهين، بلا جنسية ولا جواز . بل مأساته من قبل ، انه نطفة في رحم عقيم ، وبذرة في بلقع مرملة . نوره سري كمصباح قرصان في قبو سفينة مهربة . او كنور الجبابب، يرسم الومضة على لوح الليل ، وسرعان ما يلغها لسان الظلام .

قلت انني اتحدث عن الضفة المظلمة ، حيث يفرق الوجه الاكبر من القضية . فلا ترموني بالتشاؤم وسوداوية المزاج . اذ كل ما فعلت في الضفة الموحشة هذه ، انزعت من قيثارتي اوتار الغزل ، ومضرب الانامل على الاحلام . ان في مأساة الكتاب والثقافة عامة ، ما هو اشد هولاً ، عندما نعمم باليقين العلمي الاجتماعي ، ان الامية تغزو الادمية المتعلمة نفسها كما تغزو الرمال كمران الصحراء ، وكما يحيل السرطان دم مرضاه الى ماء ، لان الامية كالوباء تسيطر على المجتمعات الموبوءة وتسود عقلية الاميين . فكيف بها اذا كانت وباء اكثرها . وكيف بها اذا نيطت بارجلها الساحقة اعنة السيادة !

فلم مرة ظهرت الامية حوتا على صفحة الموج فقلبت المراكب والراكبين . وكم مرة فتحت كالموجة الفادرة صدرها للعابرين فاستقروا كأنهم آمنون ، واذ بها تطبق عليهم وتهضم مسيراتهم . كم مرة اسكروا الامية بخمرة السياسة علاجا او شرابا ، فاقبلت عليهم بنشوة غامرة ، وانقلبت عليهم بوحشية مدمرة . كم مرة اكلت شعاراتها ورجالاتها ، كما تأكل السعالي بناتها . ان غريزتها غريزة جريمة ، وسجيتها سجية براءة .

\*\*\*

لقد رأيت لا في جحيم دانتي ، منذ سبعة قرون بل في جحيم القرن العشرين ، اميين ينهشون جماجم المتعلمين على ضفة النهر الاسود ، ويحيلونها الى قواقع فارغة . فسألت فيم عذابهم ، فقيل هذا جزء من يتمردون على شريعة الغاب السوداء . فليعودوا اليها طينا وترابا . واذ رأيت آخرين ينجون بانفسهم من بؤرة العذاب، على شبه قشة عائمة ، او على دفة سياسية ملائمة ويدنون من سدة الديانين ، حيث تنجر عظامهم ارجلا لكراسي

## في البحرين

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

من  
الشركة العربية للوكالات والتوزيع  
شارع المتنبى

فكم مرة اكلت وشربت وزنت ومسحت فمها وقالت ربي لم آت انما .

ومثلما ان الامية الضروس الهلوك لا تؤخذ بكتب الناشرين فهي كذلك لا تروض بسيوف الحاكمين ، او يخمور السياسيين . فقد يثيرها الكتاب فتغدو اشد حرونا وجموحا بفعل رد الفعل . وقد يذلها السيف فتغدو اكثر سلبية واستهتارا وبلادة . ولن تفعل خمور السياسة فيها ، سوى نفخ عروق الجنون في غرائزها الجائعة .

ولا يحسبن السياسيون ، ان هناك في كيميياء السياسة خمرة رديئة ، وخمرة جيدة . فكل شراب ودواء ان الاديان الكبرى ، تحولت في احشاء الامية ، الى تفاهات في هذا المصنع الجراثومي يستحيل الى جراثيم . حتى وضلالات ، وقناعات مريضة ، انعدم معها اجمل ما في الاديان من قيم ثقافية واخلاقية .

كل محاولة ، عبث ، وليس الا بمحارث الدولة ، بكل ما في الدولة من حديد المحارث ، تقتلع الامية من جذورها ، وتنبش ارضها ، وتذري في الرياح الأربع اثارها .

والدولة التي لا تستطيع ان تجعل من سياسة حرث الامية حرثا ، اول مفهوم من مفاهيم قناعاتها الاساسية التأسيسية ، انما هي دولة تسودها عقلية الاميين حقا وفعلا : هي دولة اسلمت قيادها للديانتين الرابضين على ضفة النهر الاسود .

فليست الامية في المجتمع العربي المعاصر ، جانب

طالعوا كل شهر

المجلات الثقافية اللبنانية

الاديب

الحكمة

العرفان

العلوم

فهي تحمل اليكم النتاج الفكري الرصين

والابحاث القيمة باقلام خيرة الكتاب والادباء

المأساة المروع في حياة الكتاب والمثقفين، والنشر والناشرين، فحسب . بل هي بالواقع مأساة الحكم العربي ، والسياسة العربية، وكل حركة صادقة من حركات الاصلاح والثورة .

فاسمحوا لي ان اضع امامكم ايها الاصدقاء ، وعلى مائدة اسبوع الكتاب ، فكرة ميثاق ثقافي عربي ، مقدمة لاتحاد المثقفين والناشرين العرب ، يعلن به رجال الفكر والمعنيون بصناعة الكتاب العربي، اول ما يعلنون ان الامية، اضخم امراض الامة ، وان حرثها اول واجبات الدولة ، ووظائفها الاجتماعية والاقتصادية ، والثقافية ، اطلاقا .

اضع على مائدتكم ايها الاصدقاء فكرة ميثاق عربي يتقدم انشاء ( اتحاد للمثقفين والناشرين العرب ) تفرع بمجموع قبضته ابواب الدولة المغلقة دون قضيتها الكبرى، ودون تسهيل نشر الكتاب كاداة اولية اساسية من ادوات القضية .

واني لاذكركم، ولعلمكم ذاكرون ، ان قد هلت وتحققت فكرة ( مؤتمر الادباء العرب ) منذ ثلاثة عشر عاما في لبنان، فعسى ان تتحقق فكرة ( اتحاد المثقفين والناشرين ) في لبنان ايضا بما توافر لكم من اسباب الاتصال ، وكفاءات الممارسة العملية لشؤون صناعة الكتاب ونشره .

وان يكن قد تحول ( مؤتمر الادباء العرب ) الى مجرد عكاظ ادبي بلاغي ، يتجمع له الادباء ، للتعارف فيما بينهم، في احسن حالاته ، ولم تكن توصياته سوى رموز وشكايات . فعسى ان يتحول (اتحاد المثقفين والناشرين)، فوق ركاب التجارب والمحاولات ، الى قوة جديدة ، دائبة قارعة ، تحرك ضمير الامة التي وضعت ميراث اضخم الحضارات بين ايدي اتعس الاميات .

بل عسى ان يكون الميثاق وما يتلوه درسا علميا واجتماعيا للمعضلة العربية الاولى ، يوزع معه في الافاق القريبة والبعيدة صرخة المأساة ، ويرسل الى جبهة الغابة السوداء ، شارة جديدة من شارات التحدي . وستكون هذه المرة ، شارة الكتاب العربي الذي لا يقبل ان تسوده عقلية الغابة السوداء ، ويرفض دينونتها .

انكم ايها الاصدقاء ، لا تفعلون ذلك ، لاجل الكتاب وحده ، وهو بحد ذاته ، هدف من اعز الاهداف ، بل تفعلون ذلك في سبيل امة لم يبق كتابها يمينها ، عندما تدعى امم الارض وكل كتابه يمينه . ايها الاخوة

مهما يكن من فكرة الميثاق والاتحاد ، وانتم بطبيعة معاناتكم ، وببطبيعة الصلة الرائعة بينكم وبين اصدقاء الكتاب تؤلفون هذا الاتحاد ، على الصعيد اللبناني تأليفا عمليا واقعيا تهنأون عليه وتغبطون لاجله ، فاني لست هنا الليلة ، بينكم ، الا للتحية ، ورد التحية بمثلها . ولا استطيع احسن منها .

فشكرا لكم . وشكرا لكل ما تفعلون ، وتبدلون وتعاونون ، في سبيل جمهور الكتاب العربي ، وعزة اهله .

فؤاد الشايب